

الملاحة العربية و أثرها في تنمية الصلة بين الدول

Arabic Navigation and its impact on International Relationship

Dr. Mohamed Rafiq Hasani

Assistant Professor,
 School of Arabic and Islamic Studies,
 B.S. Abdur Rahman Crescent Institute of Science & Technology,
 Chennai, India.
 Email: rafiq@crecident.education

الدكتور محمد رفيق الحسني

الأستاذ المساعد، كلية الدراسات العربية والإسلامية،
 جامعة هلال بي. يس. عبد الرحمن للعلوم والتكنولوجيا،
 تشناني، الهند.

Dr. Usman Ali Hasani

Assistant Professor,
 School of Arabic and Islamic Studies,
 B.S. Abdur Rahman Crescent Institute of Science & Technology,
 Chennai, India.
 Email: usmanali@crecident.education

الدكتور عثمان علي الحسني

الأستاذ المساعد، كلية الدراسات العربية والإسلامية،
 جامعة هلال بي. يس. عبد الرحمن للعلوم والتكنولوجيا،
 تشناني، الهند.

Abstract

The main object of this article is to bring out the historical truth which has been hidden since many eras, Arab sailors had travelled by ship East to west for trading purpose even before the advent of Islam, and they continued to sail after Islam for calling people towards Islam. Sailing was not easy that time, but Arabs dealt with this art easily by their own experiences, and their good knowledge in this field. The *Armed Forces* are the *military forces*, it consists of three professional uniformed services: The *Army*, *Navy* and *Air Force*. Navy is one of most powerful force, and navigation is the largest source of transporting goods since ancient period to this globalized era, also it is strongest support of trade via exporting and importing. In this article I have brought out some important points.

1. Arabs are pioneers of navigation (with proof from Quran and Poetry of Jahilia)
2. Arab sailors have invented so many things in this field.
3. There are several Arabic loan words in English.
4. Vasco da Gama and Columbus achieved their victory with maps and guides of Arab navigators.
5. First time in the history Arabs were the first to bring out the truth about destination, and connection between the seas.
6. Some important Arab navigators' names who played massive role in navigation.

Key Words: Navigation, Nova, Navy, Arab Sailors, Arab Land, Courage of Arabs, Shipping, Advent of Islam, Quran and Arabic Loan Words, Source of transporting, Import and export, Boussola, Magnet Compass Astrology, Vasco Do Gama, Columbus, Calicut, Sulaiman 255 H, Abul Hasan Seeraji 255H.

ملخص البحث:

إن في العالم عدة وسائل لكسب الأموال وسد حوائج الناس المادية، ولكن كثيرا منها تداولها أيدي الناس في القرون الأخيرة، ثم نمت وترقت حسب تطور المعيشة البشرية بسبب اكتشافات سريعة واختراعات رائعة يوما فيوماً، فانحصرت الدنيا في دائرة صغيرة، ولكن الباقية منذ القدم والنافعة لبني آدم، والمتميزة للنقل والممتازة للحمل فهي الملاحة البحرية وأسفارها التي لا يزال يستخدمها الإنسان منذ فجر التاريخ من سيدنا نوح عليه السلام ثم بعده داود وسليمان وموسى عليهم السلام إلى هذا العصر المتمدن، وقد وصفها الله بقوله البليغ "تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس".

يرى المؤرخون أن الكلمات "Naval, Navigation, Navy, Nautical" (بحارة وملاحة) التي تستعمل للملاحة العالمية الآن جاءت من كلمة "نوا" في بابل وهي تشير إلى سيدنا نوح عليه السلام الذي صنع الفلك بوحى الله وأمره. وارتبطت القارات والدول والمدن الكبرى والقرى الصغرى بعضها ببعض بالتجارة البحرية واستفاد الناس بها عامة. وبالنتيجة من ذلك ظهر التبادل الحضاري والفكري دون أن ينحصر بالتبادل المالي فحسب.

أرض العرب:

دولة العرب أرض أحاطتها ثلاثة بحور، خليج فارس في ناحية والمحيط الهندي في ناحية أخرى، وبحر القلزم أو البحر الأحمر في أخرى، لذلك سميت دولة العرب بالجزيرة كما نرى في ابتكار الأدب العربي ذكر "جزيرة العرب" عامة لدلالة بقاع العرب. وقد أوضح الدكتور محمد اجتباء الندوي موقع دولة العرب بصراحة فيقول: إن ثروة دولة ما يتم اقتناؤها إلا بطريقين، أولهما: الزرع، والآخر: التجارة، ونظرا إلى طبيعة أرض شبه الجزيرة العربية فإنها صحراوية، وهي تتطلب أن تروج فيها التجارة وباستعراضنا للمناطق المأهولة للجزيرة العربية نجد أنها تقع على ثلاثة جوانب ساحلية، فإذا بدأنا الاستعراض من الجهة الغربية فالبحرين وعمان وقطر والكويت وشط العرب تقع على الخليج الفارسي، وفي الشمال حضرموت وعدن والمكلا على ساحل العرب، وفي الشرق الحجاز والمدينة وجدة على ساحل البحر الأحمر أو القلزم. أما من الناحية الداخلية فإن الجزء المخصب مثل اليمامة والنجد والمدينة المنورة وخيبر كانت توجد فيها الزراعة، والمناطق الساحلية العربية نجدها تواجه الدول الكبيرة في العالم، فعمان والبحرين وقطر والكويت مقابلة لإيران والعراق، أما اليمن وحضرموت وجدة فتواجه إفريقيا والهند بحرا، ومصر تقع أمام الحجاز وجدة والشام بجانبها^١.

فألجأت الفطرة الأرضية أهل العرب إلى أن يشتغلوا بالتجارة، من أجل ذلك لما بدأ تاريخ العرب بدأ أن يتمكن فيه ذكر تجارتهم أيضا، وكما أن الوفد الذي أخرج يوسف عليه السلام من البئر وأوصله إلى سوق مصر قبل عشرين قرنا من المسيح عليه

^١رسالة "التفاعل الثقافي والأدبي بين الهند والعرب" للشيخ محمد اجتباء الندوي

السلام هم تجار العرب، وكان ميدان تجارة العرب في البر والبحر، ولكن رغبة أكثر العرب كانت في التجارة البحرية بما تقع المناطق الخضراء الساحلية العربية في البحرين واليمامة وعمان وحضرموت واليمن، وبوجود تلك الأسباب البحرية استلزم أهل العرب أن يكونوا ملاحين. وثبتت بالتجارة البحرية علاقة العرب مع الدول العديدة خاصة مع الهند، لأنه لا يحول بين العرب والهند إلا المحيط الهندي، وتصل القافلة التجارية العربية بلاد الصين بعد مرورها بالبحر الهندي، ثم من الشام تصل إلى الروم.^١

الملاحة العربية قبل الإسلام

كانت الملاحة العربية تمتد من القرون قبل الإسلام ولكن النمو في هذا الفن والتطور الخاص كان بعد الإسلام، والدلائل

المهمة لإثبات الملاحة العربية قبل الإسلام ثلاثة:

- ١ لسان العرب
- ٢ أشعارهم في الجاهلية
- ٣ الكتاب السماوي يعني القرآن الكريم.

لسان العرب

في لسان العرب ألفاظ عديدة زاخرة للملاحة والبحر والفلك والشراع، يدل ذلك على وجود الملاحة منذ القدم. ولو كان في لغة القوم وكلامهم ومزاجهم واصطلاحاتهم ألفاظ خاصة لمعانٍ خاصة فمن اللازم أن يكون المعنى والمسمى موجودا في حياتهم، لأنه لو لم يكن لشيء معنى خيالي كيف يوجد له ألفاظ؟ فألفاظ الملاحة في لسان العرب تدل على وجود الملاحة في الحياة الواقعية منذ القدم.^٢

البحر والفلك

'البحر' و'الفلك' وهما من أساس الملاحة وقد بين الله عنهما في أماكن مختلفة في القرآن المجيد حتى ورد ذكر "البحر" ٣٦ مرة، و"الفلك" ٢٣ مرة، وذلك يشهد على اشتغال الأمم الماضية في الأمور الملاحية قبل نزول الفرقان.

البحر: الماء الواسع الكثير ويغلب فيه الملح^٣ والبحر المحيط هو المحيط بالقارات الخمس.

وأرض الله واسعة لنيل المعيشة والطيبات من الرزق، والبحر من أهم مصادر لطلب الرزق كما في حقيقة الطبيعة أن ٧٠% من سطح الأرض أحيطت بالماء، فلازم أن تشمل البحور من الأرض أجزاء واسعة، فيتضح من ذلك أن أكبر مصادر المعيشة

١ عربون كا جهاز راني للعلامة السيد سليمان الندوي، ص:

٢ عربون كي جهاز راني (الملاحة العربية) باللغة الأردية للعلامة السيد سليمان الندوي، ص: ٣٢

٣ المعجم الوسيط للإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث ص: ٤٠

الإنسانية تعتمد عليها. ويطلق لفظ البحر للمحيط والنهر أيضا، وكذلك اليَمّ كما أطلق الله لفظ البحر للنيل والبحر الأحمر، (سورة طه-٣٩) لفظ القاموس أيضا يدل على معنى البحر لذلك سعى اللغوي الشهير مجد الدين الفيروزآبادي معجمه بالقاموس المحيط لأنه البحر العظيم في ذخيرة الألفاظ. ولفظ القومس أيضا يجيء بمعنى البحر والقلمس وكذلك الخضم والخضرم وغيرها بمعنى البحر العظيم،^١ فوجود كثرة الألفاظ لشيء يشير إلى كثرة انغماس الناس فيها.

السفينة

السفينة ج السفن: من سفن يسفن بمعنى قشر، سميت بذلك لأنها تقشر وجه الماء.^٢

فأول من ركب السفينة هو سيدنا نوح عليه السلام ومن آمن معه من المؤمنين من قومه ومن كل زوجين اثنين، وصنع نوح عليه السلام السفينة بوحي الله وبمعاينته جل وعلا:

"واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون" (سورة هود: ٣٧)

يصف العلامة ابن كثير هذه السفينة عن قتادة أنه قال: كان طولها ثلاث مائة ذراع في عرض خمسين، وعن الحسن: طولها ست مائة ذراع وعرضها ثلاث مائة، وقيل غير ذلك، قالوا: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.^٣ استخدم شعراء العرب كلمة السفينة عامة، واستخدم القرآن الكريم كلمة الفلك كثيرا، وهناك أسماء مترادفة للسفينة كما أن 'القارب' يدل على السفينة الصغيرة، وسنبك وسنبوك وسنبوق أيضا تشير إلى السفينة الصغيرة، واستخدام تلك الأسماء أهل الحجاز كثيرا.^٤

وكان مركب العرب مشهورا بمتانته وشدته، قد ركز بالقوة وهو نموذج بشكله الخلاب الذي يقي من الرياح والحر والمطر، والمركب الصغير منها يصنع بنحت شجرة واحدة، والمركب الكبير يصنع بإضافة خشب الشجر المختلفة بعضها ببعض وتضبط بمسامير الخشب دون مسامير الحديد، فيكون شكلها عريقا، ولا يستطيع شاهده أن يقول إنه غير طبيعية.

^١ القاموس المحيط للفيروزآبادي، ص 733,744

^٢ المعجم الوسيط للإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث ص: ٤٣٤

^٣ تفسير القرآن العظيم للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير بتحقيق سامي بن محمد الجزء الرابع ص: ٣٢٠

^٤ شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين أحمد الخفاجي، ج ٣ ص: 103

الملاحة

الملاحة من الملح لكون ماء البحر مالحا، استعمل الناس هذه الكلمة بداية لصانع الملح، ثم استعملوها استعارة للذي يسافر في البحر، ثم من وزن الفعالة عُرفت "الملاحة" للمهنة البحرية ثم أطلقت عامة للذي يشتغل فيها، والسفانة كلمة مترادفة للملاحة، ومنها استخرج الأسماء مثل الملاح والسفان والبحار وغيرها.

وقد استعملت للملاح العربي في ساحل بحر الروم كلمة 'النوتي'، وهذه الكلمة توجد في أشعار الجاهلية، وفي عهد الصحابة رضي الله عنهم أيضا، النوتي معناه الملاح الذي يدير السفينة^١، ويرى الجوهرى أن هذه الكلمة من كلام أهل الشام ثم تحولت إلى العربية ثم صدر منها أسماء (Naval, Navigation, Navy, Nautical)

يقول الأستاذ سليمان الندوي رحمه الله: إن في جنوب الهند قبيلة من العرب، يقال لهم 'النوائت' جمع النائت، ومن الممكن أن يكونوا من جيل النوائت أي الملاحين، فهاجروا إلى سواحل جنوب الهند في زمن حجاج ابن يوسف^٢.

الساحل: 'جد' بمعنى الساحل وهو اسم قديم له، ومنه سميت مدينة ساحلية مشهورة في الحجاز بـ'جدة' وأسماء شط وشاطئ وضافة وسيف وعبر وحيزة أيضا تأتي في معنى الساحل.

الكلمات الملاحية في العربية كما تلي:

إقلاع، إنشاء، إشراع، إرفاء، إرساء، جدف، مجداف، مجداف، مردى، مقذف، مقذاف، سكان، كوثد قلع، شرع، جل، طائق، دقل، صاري، قلس، جؤجؤ، دسار، مسمار، سمر، خزر، قلف لوح، ملاح، زيار، مخر، سابور، وصابور، وصبور^٣. هذه كلها كلمات عربية قديمة منذ وجود اللغة، وتتابع بعد الإسلام كلمات أخرى وجديدة ومنها البار بمعنى الساحل ونجد في ذكر سليمان التاجر (٢٢٥ هـ) بلدة في سواحل مدراس باسم كلاه بار (كيلا كرى) ومليبار (كيلا) ويقول "الساحل كل يقال له بار"

توجد في مصطلح الملاحة العربي كلمات غير العربية من الفارسية والهندية واليونانية واللاتينية والتاميلية وغيرها، وعلى سبيل المثال أخص بكلمة تاملية التي انتقلت إلى العربية وهي "كثير" بمعنى الحبل- والأصل (كثر)^٤. ونجد كذلك كلمات عديدة تحولت من العربية إلى الإنجليزية في مصطلح الملاحة، وذلك بسبب كثرة اشتغال العرب بالتجارة البحرية في البلدان الأجنبية وغلبتهم عليها وتدخلت هذه الكلمات العربية في الإنجليزية^٥.

^١ لسان العرب لابن منظور، ج ٣ ص: ٧٣٨

^٢ عربو كا جهاز راني (الملاحة العربية) للعلامة السيد سليمان الندوي، ص: ٦

^٣ شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين أحمد الخفاجي، ج ١ ص: ١٢٥

^٤ عربو كا جهاز راني (الملاحة العربية) للعلامة السيد سليمان الندوي ص ١٢

^٥ List of Arabic loan mla words in English Wikipedia

ألفاظ الملاحة العربية المنتقلة إلى اللغة الإنجليزية:^١

العربية	الإنجليزية
دار الصناعة	Arsenal
أمير البحر أو أمير الرحل	Admiral
الرئيس	Arraef
الغراب	Corvet
الفلك	Fluga
القلق	Culpat
أنجر أو اللنجر	Anchor
الحراقة	Alhurrego
حبل وكبل	Cable

وإذا أمعنا النظر فيها نعترف صلة العرب بالأقوام المختلفة وكما أنها تثبت أيضا اشتغال العرب بالملاحة من زمن بعيد.

الملاحة في الأشعار العربية

تهتم الأشعار العربية في إثبات تاريخ الملاحة قبل الإسلام، وبتلك الناحية نجد إشارة إلى الملاحة والسفينة في أشعار شعراء البحرين والخليج، وفارس، والعراق، والحيزة في زمن الجاهلية، كما أن طرفة يشبه في قصيدته حركة حدوج الناقة بحركة السفينة فيقول:

كان حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجور به الملاح طوراً ويهتدي^٢
وأيضاً يشبه طرفة شق السفن بالماء بشق الطفل التراب المجموع بيده:
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التراب المفائل باليد
ويمدح كذلك عنق ناقته الطويلة بذنب السفينة وسكانها كما يلي:
واتلع نهاض إذا صعدت به كسُكَّان بُوصي بدجلة مصعد^٣

^٢ شرح المعلقات السبع لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ص: ٤٨

^٣ شرح المعلقات السبع لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ص: ٥٤

يقول: هي طويلة العنق فإذا رفعت عنقها أشبه ذنب سفينة في دجلة تصعد، ثم يشبهه في الارتفاع بسكان السفينة في حال جريها في الماء.

وكذلك الشعر من هذا القبيل والمشبه بالسفينة والبحر هو فخريه الشاعر عمرو بن كلثوم.

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر النذل فينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملأه سفينا

الملاحه في الآيات القرآنية

آلاء الله سبحانه مملوءة في البحر منذ بداية الإنسان إلى الآن وتبقى موفورة إلى يوم القيامة وجعل الله في البحر أشياء غالية ونافعة، حيث يقضي بها حوائج الإنسان الغذائية ويثمر جهوده في سبيل كسب المال، وكذلك تستخرج منه الأطعمة الطازجة والأدوية الضرورية والأعراض الهامة، حتى النفط الذي عليه بناء اقتصاد العالم اليوم، وكذلك توجد فيه الأحجار الغالية والنادرة.

منافع البحر والفلك وحقائقها

"وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجون منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (سورة النحل: ١٤)

بين الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير مراد الآية المذكورة في تفسيره واضحاً حيث قال: "يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم بالأمواج، ويمتنع على عباده بتدليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعل السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حياً وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من الآلاء والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل تمخره بجؤجؤها وهو صدرها المسنم، الذي أرشد العباد إلى صنعته، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعته، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك، ولهذا قال تعالى: "ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" أي نعمه وإحسانه."

آيات الله عظيمة ومنها الركوب في الفلك، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم:

"ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقهم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (سورة الروم ٤٦)
"وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون" (سور يس ٤١)

يبدو من الآيات السابقة أن العرب كانوا يستفيدون من الملاحه منافع كثيرة، وكانت من أهمها ثلاثة، وهي:

١. صيد الأسماك

^١ شرح المعلمات السبع لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ص: ١٢٧

٢. استخراج اللؤلؤ والياقوت

٣. نقل السلعة من بلد إلى بلد وطلب المعيشة بأسفارها

وقد أنشأ الله سبلا في البحر كما أنشأ سبلا في البر، وجعل النجوم منارة ليهتدي بها الناس في ظلمة الليل كما يشير إليه قوله سبحانه:

"وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعقلون" (سورة الأنعام: ٩٧)

وكذلك الفلك آية من آيات الله الكبرى لأن الله خلق عدة أشياء في البر والبحر ليعتبر بها الإنسان ويزداد إيمانه بها وليعقل أنه هو الخلاق العظيم، فيذكر الله قوله:

"ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم" (سورة الحج: ٦٥)

"الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (سورة الجاثية: ١٢)

ويذكر الله سبحانه حال أهل العرب عامة، وحال أهل قريش خاصة حينما ركبوا الفلك في الآية التالية ويعبر خواطرهم في وقت الركوب والنزول فقال تعالى:

"فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون" (سورة العنكبوت: ٦٥) وبهذا المعنى تأتي الآية الأخرى توضح عجزهم وخشوعهم حينما أحيطوا بالموج وجحدهم وإشراكهم بالله بعد النجاة منها:

"وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور" (سورة لقمان: ٣٢)

وفي الآية الأخرى نجد إشارة إلى وجدان العرب حينما أحيطوا بالكرب، ثم نجد التأييد لهم من الله والأمان، لأنه هو المنجي من كل عناء وبلاء، فقال تعالى:

"قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجنا من هذه لنكونن من الشاكرين" "قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون" (سورة الأنعام: ٦٤، ٦٣)

هذه الآيات جاءت في سبيل ضرب المثال لتجارب العرب بالأسفار البحرية وتلقي الأحوال المزعجة والفجائية ومشاهداتها بأعينهم وقت النزول وما قبله، وأيضا تشهد إياب العرب وذهابهم مسافرين بحريا لأغراض مختلفة قبل الإسلام.

علم العرب بالبحر

كان الناس يحسبون قبل تطوّر العلوم والفنون حين يرحلون في البحر ويصلون إلى نهاية حدودهم البحرية أنها سينقطع البحر عن البحر الآخر، وليس بين البحار ارتباط، ولكن الحقيقة أن كل بحر يختلط مع بحر آخر، وليس في بحر الهند والعرب والصين وفارس والروم والشامي فجوة، بل كلها دائرة الماء العظيمة تحيط العالم بعضها ببعض، ويدعي سليمان التاجر العربي (٢٢٥ هـ) أنه اكتشف هذه الحقيقة أول مرة فيقول: ومما حدث في زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا أنه لم يكن يقدر أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام ولا يقوم في أنفسهم حتى كان في عصرنا هذا فإنه بلغنا أنه وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخروزة التي قد تكسرت بأهلها فقطعها الموج وساقها الرياح بأموج البحر فقذفته إلى بحر الخزر ثم جرى في خليج الروم ونفذ منه إلى بحر الروم والشام. فدل هذا على أن البحر يدور على الصين والسيلا وظهر بلاد الترك والخزر، ثم يصيب في الخليج فيفضي إلى بلاد الشام وذلك أن الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة، وبلغنا أيضا أنه وجد ببحر الشام عنبر وهذا من المستنكر وما لم يعرف في قديم الدهور، ولا يجوز إن كان ما قيل حقا أن يكون العنبر وقع إلى بحر الشام إلا من عدن والقلزم وهو البحر الذي يتصل بالبحار التي يكون فيها العنبر، لأن الله جل ذكره قد جعل بين البحرين حاجزا (أرض السويس) بل هو إن كان صحيحا ما يقذفه بحر الهند إلى سائر البحار واحدا بعد واحد حتى يفضي به إلى بحر الشام.^١

ويتبين من بيان سليمان العربي أن له معرفة بينة عن خريطة العالم والبحار، هكذا أوضح بعده بعض من الملاحين طرق البحر من ساحل إفريقيا إلى ساحل بحر الروم مثل ابن واضح اليعقوبي والمسعودي في القرن الثالث، فسجل المسعودي كلماته: وأما امتداد البحر المحيط الغربي من أرض طنجة نحو الجنوب فإنه ينحرف على جنوب أرض السودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القمر التي تنبع منها عيون نيل مصر، وفي سلوكه غزر لا تنجو منه سفينة، وأما البحر المحيط من جهة الشرق وراء أقاصي أرض الصين، فإنه أيضا غير مسلوك، ويتشعب منه خليج يكون منه البحر الذي يسمى في كل موضع من الأرض التي تحاذيه، فيكون ذلك أول بحر الصين، ثم الهند، وخرج منه خلجان عظام يسمى كل واحد منها بحر على حدة، والخليج الآخر المقدم ذكره هو المعروف ببحر البربر يمتد من عدن إلى سفالة الزنج، ولا يجاوزها مركب معظم المخاطرة فيه ويتصل بعضها ببعض أو قيانوس المغربي.^٢

والخلاصة أن العرب كانوا يعرفون طريقين الذين يوصلان من بحر العرب إلى البحر المحيط.

شجاعة العرب في الأسفار البحرية:

^١ مروج الذهب للمسعودي ص: ٤٦

^٢ مروج الذهب للمسعودي ص: ٤٨

يقول المسعودي عن شجاعة العرب في الملاحة البحرية: وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج، والعمانيون الذي ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري وهم يعرفونه ببحر بربري، وبلاد جفني أكثر مسافة مما ذكرناه، وموجه عظيم كالجبال الشواهد فإنه موج أعى، يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية، لا ينكسر موجه، ولا يظهر من ذلك زيد، كتكسر أمواج سائر البحار، ويزعمون أنه موج مجنون، وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد، فإذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ما ذكرناه من الأمواج ترفعهم وتخفضهم، فيرتجزون ويقولون:

بربري وجفني وموجك المجنون

جفني وبربري وموجها كما ترى

وينتهي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو على ما ذكرنا^١.

لم يكن العمل على سطح السفن الشراعية العربية سهلاً أو مريحاً لكنه كان عملاً شاقاً ومنظماً، يحتاج إلى الشباب القادر على تحمل أهوال البحر ومخاطره، ومع ذلك قد أتاح لبحارة العرب التعرف على شعوب وعادات وخبرات جديدة عليهم.

معلومات العرب عن المقادير والمساحة:

العرب لهم يد طولى في العلم الجغرافي، حتى بطلت آراء علماء الجغرافيا أمام تجاربهم العملية، فيقول المسعودي عن علم العرب: "ووجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين يخبرون عن بحر الحبش في أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم ممن حكينا عنهم المقادير والمساحة، وإن ذلك لا غاية له في مواضع منه، شاهدت أرباب المراكب في البحر الرومي من الحربية والعمالة، وهم النواتي وأصحاب الرحل والرؤساء ومن يلي تدبير المراكب والحرب فيهم" كانت هذه المعلومات مبنية على التجارب العملية ومشاهداتهم العينية^٢، ويزيد في بيانها قائلاً:

ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها في أوقات تكون منها مهاها، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها في إبان هيجانه وأحوال ركوده وثورانه، هذا فيما سمينا من البحر الحبشي والروم والمسافرون في البحر الرومي سبيلهم كذلك، وكذلك من يركب بحر الخزر إلى بلاد جرجان وطبرستان والديلم^٣.

الدليل العربي لـ"واسكود غاما" (Vasco da Gama):

^١ مروج الذهب للمسعودي ص: ٣٨

^٢ مروج الذهب للمسعودي ص ٤٥

^٣ مروج الذهب للمسعودي ص ٤٠

كان العرب يعرفون من قديم الزمان أن لوركبوا في بحر الروم ومروا البحر المحيط لوصولوا البحر الهندي بعد جولتهم في سواحل إفريقيا، كان في ذلك الوقت معلم وملاح معروف باسم أحمد ابن ماجد، وكان له يد طول في الآلات البحرية وخريطة طرق البحر، وهو الذي دلّ واسكو دا غاما (Vasco da Gama) على طريق الهند - في حالة سُكره حسب رواية العرب، أو حريصا على الهدايا والتحف حسب رواية الأوربيين- وأوصله إلى كالي كوت (Calicut) في جنوب الهند وهي ميناء كبيرة ومشهورة لتجارة المصالححة حينئذ، اعترف بتلك الحقيقة كل من العرب والأوربيين معا، ووصل واس كودا غاما الهند سنة ١٤٩٨م.

يقول المؤرخ البريطاني: أن واسكو دا غاما (Vasco da Gama) رأى خريطة الملاحة في سواحل إفريقيا من عند العرب وعرف من تلك الخريطة طريق الهند والسواحل الأخرى، والمساحة بين البلدان حسب تقدير العرب، وكما أنه مسجل في الموسوعة البريطانية.^١

وكذلك كانت جغرافية العرب وخرائطهم البحرية سببا أساسيا لرغبة الملاح البرتغالي كولامبس (Columbus) في رحلته.^٢
البوصلة المغناطيسية:

كان العرب يهتدون بالجمال والسواحل في النهار ويعرفون الجهات ويصلون غايتهم بالبوصلة المغناطيسية في الليل المظلم، ونال أهل الأوربية علم البوصلة المغناطيسية من العرب في القرن ١٥ أو بعده، واستفاد أهل الأوربية من زمن الملاح الأوربي واسكو دا غاما (Vasco da Gama) إلى القرن الأخير من علوم الملاحين العرب وآلاتهم البحرية.

وسجل المقرئزي (٨٤٥هـ) عن البوصلة المغناطيسية في كتابه المشهور بالسطور الآتية: "ما برح المسافرون في بحر الهند إذا ظلم عليهم الليل ولم يروا ما يهدهم من الكواكب إلى معرفة الجهات يحملون حديدة مجوفة على شكل سمكة وبيالغون في ترقيقها جهد المقدر، ثم يعمل في فم السمكة شيء من مغناطيس جيدا ويحق فيها بالمغناطيس فأن السمكة إذا وضعت في الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبي بفمها، واستدبرت القطب الشمالي، وهذا من أسرار الخليفة، وإذا عرفوا جهتي الجنوب والشمال تبين منهما المشرق والمغرب فإن من استقبل الجنوب وقد استدبر الشمال، فيتوجه المغرب عن يمينه، والمشرق عن يساره، فإذا تحددت الجهات الأربع عرفوا مواقع البلاد بها، فيقصدون حينئذ جهة الناحية التي يريدونها."^٣
ويقول ابن ماجد السعدي في الفوائد في أصول البحر والقواعد بتلك الكلمات "ومن اختراعنا في علم البحر تركيب مغناطيس على الحقبة بنفسه، ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب، وأنه لم يقابل الجاه الاسهليليه فميزوا في هذه النقطة، فإذا كان أحد يعرف فنحن مسبقون".

^١ عربو كي جهاز راني (الملاحة العربية) للعلامة السيد سليمان الندوي ص: ٩١

^٢ هو الذي خرج ليبحث طريق البحري إلى الهند ولكن وصل إلى أمريكا

^٣ كتاب الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها للإمام تقي الدين أحمد المقرئزي ج ١ ص: ١٦٦

ويزيد على هذا البيان في موقع آخر في كتابه فيقول: "وأما ضرب بيت الإبرة بالمغناطيس قيل إنها من داود عليه السلام لأنه كان معنى بالحديد وخواصه، وقيل من الخضر عليه السلام لما خرج في طلب ماء الحياة ودخل الظلمة وبحره ومال لأحد الأقطاب، حتى غابت عنه الشمس قيل اهتدى بالمغناطيس وقيل اهتدى بالنور والمغناطيس حجر يجذب الحديد" ويقول أيضا: "أما المغناطيس الذي عليه المعتمد ولا تتم هذه الصنعة إلا به وهو دليل على القطبين فهو استخراج داود عليه السلام".^١

الفنون التي امتاز بها العرب:

كان العرب بارزين في فنون الملاحة المختلفة، وامتازوا بها بين الأمم بسبب الخبرة الدقيقة والجهد المتواصل في المهنة البحرية جيلا بعد جيل، ومن تلك الفنون الهامة:

- علم النجوم وتمييزها
- معرفة المقادير والمساحة
- معرفة مهاب الرياح حسب الفصول والأوقات والجهات
- معرفة مواسم البحر المختلفة وأثر الفصول
- جغرافية البلاد والمواني والجبال الخطيرة والطرق الضيقة في البحر
- استخدام آلات الفلك المختلفة
- المعرفة بالجزائر والمدن وسكانها
- المعرفة باللسنة مختلفة
- حساب الأشهر الشمسية وأيامها

وقد تقدم العرب الأوربيين بقرون في العهود التجارية وتقرير وكلاء التجارة في البلدان الأجنبية وتحديد حدود البحور والتبادل المالي وقوانين الميناء وغيرها، وأسّسوا بنيانها أول مرة في العالم، ولم يؤسس العرب في التجارة البحرية فحسب، بل أورثوا قدوة قيمة وأثرا رائعا في الجغرافية والفلكية والاقتصادية والحساب والطب والكيمياء من العلوم والفنون أيضا.

وفي هذا المهم أريد أن أشير إلى المؤرخين الذين قصروا في أداء الواجبات في مؤلفاتهم، وتركوا ذكر هؤلاء الملاحين الشجاع من العرب الذين أفادوا العالم جيلا بعد جيل بتضحيتهم وبذل قصارى جهدهم في مجال أحاطته من كل جهة خطرة وهلاك. وهذا التقصير من كفران التاريخ، ومن اللازم الآن أن نفتش عن هؤلاء المحسنين الذين ربطوا الشرق والغرب برحلتهم وسافروا من خليج الفارس إلى الصين، وقائمة الأسماء طويلة فأخص ذكر أسماء بعض منهم:

- سليمان ٢٢٥ هـ.

^١ الفوائد في أصول البحر والقواعد ص: ١٠٥

- أبو الحسن بن الشاذان السيرافي ٢٥٥ هـ.
- أبو الزهر برختي ناخدا ٣٠٠ هـ.
- شهرياري الذي يرحل إلي الصين
- عبد الواحد
- يزيد العماني
- عبد الله بن جنيد

بالجملة كان العرب متحملين الشدائد ومواجهين العوائق بسبب أجسامهم الجلدة طبيعية وعادات أطعمتهم المفيدة للصحة وهمهم العلى، وهذه الصفات العادية والمادية ساعدتهم ليقوموا بواجبات التجارة البحرية من أهمية بالغة، وأيضاً دلّت معرفتهم بالجغرافية وخرائط البحور للأوطان ومؤلفاتهم في هذا الفن إلى أن يكونوا سابقين في هذا المهم من دونهم، وهذه هي الحقيقة وراء قدوم العرب إلى مغارب الأرض ومشارقتها تجاراً ثم دعاة بعد انفجار الإسلام في أنحاءها.

المراجع

١. رسالة التفاعل الثقافي والأدبي بين الهند والعرب محمد اجتباء الندوي
٢. عربو كي جهاز راني (الملاحه العربية) للعلامة السيد سليمان الندوي
٣. تفسير القرآن العظيم للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير بتحقيق سامي بن محمد الجزء الرابع
٤. شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين أحمد الخفاجي
٥. لسان العرب لابن منظور الجزء الثالث
٦. شرح المعلقات السبع لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني
٧. مروج الذهب للمسعودي
٨. كتاب الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها للإمام تقي الدين أحمد المقرئبي الجلد الأول
٩. "Significance of Arabic Language and Tamil-Arabic Relationship." *Al-Bukhari Journal of Arabic and Islamic Studies* 1.1 (2021) Dr. KMA Ahamed Zubair.
١٠. List of Arabic loan words in English Wikipedia.